الثورة السورية .. معركة حلب .. حقائق من الميدان!..

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وكفى وسلام على نبيه المصطفى وبعد :

فقد كنت متحرجا في الكتابة عن معركة لاتزال رحاها قائمة , وحتى لا أقع في شراك " حماسة الميدان " آثرت التريث قليلا ,حتى أكون قادرا على وضع القارئ الكريم في صورة مايحدث.
وكما قلت سابقا , فإن الغرض من هذا النوع من المقالات , الوقوف على مواضع الخطأ, والخلل , لا فرحا بها وشماته بأصحابها , بل لعلاجها والتنبه لها , فلست هنا في معرض مدح وثناء لهذا أو ذاك .. لذا وجب التنبيه!..

مكانة حلب في الثورة السورية

فهي مدينة ضخمة , وتعتبر عاصمة سوريا الإقتصادية , ومخزن غذائي يمد كافة أنحاء القطر بما يحتاج , بل ويتعداه إلى دول مجاورة , وفيها معامل الأدوية , ومعامل النسيج , والصناعات المعدنية , والأسواق الضخمة , ومحال تجارية , وغيرها الكثير.
إضافة إلى كونها مكان عمل ومصدر رزق لقرابة ستة ملايين سواء من سكان حلب ,أو من الزوار والتجار من المحافظات الأخرى , بتبادل تجاري يصل إلى الملايين من الدولارات يوميا.
وهي موطن لرؤوس الأموال في سوريا , ومكان آمن وسوق لكبار التجار.
فحلب إذن كانت الشريان المغذي لكافة أنحاء سوريا ,بكل ماتحتاجه , ومكان لجوء ونزوح من بقية المحافظات المنكوبة كإدلب وحمص وريف دمشق ,هذا من ناحية.
ومن ناحية أخرى , وبخلاف ما أشيع , فقد كان الكثير من تجار حلب , يمد الثورة بالمال , ويمد المسلحين بما يلزم بشكل سري , خصوصا في المرحلة التي سبقت تحرير الريف الحلبي , وكانت المساعدات الدوائية والغذائية تنطلق من المدينة بشكل غير معلن إلى المناطق المنكوبة بما فيها الطواقم الطبية التي تشكلت طواعية من قبل أطباء مدينة حلب , وكانت المشافي الخاصة والعامة تعمل بشكل طبيعي كذلك , كما أن المدينة الضخمة كانت تعتبر متنفسا لمن يريد أن ينجز معاملاته الورقية , فيما يتعلق بالسفر , والزواج , والملكية وغيرها , حيث كانت جميع

مرافق الدولة الإدارية والمؤسسات الخدمية تعمل بشكل طبيعي, فتبقى الحياة المدنية سائرة غير متأثرة بالحرب الدائرة.

فالثورة رغم ماتعرضت له من نكبات , وضغط أمني وعسكري في مناطق كثيرة , إلا أن ثبات مدينة حلب , والهدوء الذي كان يسودها , كان يفيد الثوار , و بقية المناطق المنكوبة , ولم يكن النظام قادرا على إحلال فكرة " خراب البلد وضياعه " لتخويف ووضع الناس أمام أمر واقع , فيجبرهم على قبول أي حل , في ظل تدهور الوضع الإقتصادي والأمني , وإختفاء أبسط أساسيات الحياة من غذاء ودواء.

بل إن هناك توازنا ما حصل في البلاد , حيث أن المطالب الشعبية كانت تنادي باستمرار الثورة وتقدمها , مع عدم خشية قادة الثورة والقائمين عليها من إنقلاب الناس , إذ أن هناك مناطق آمنة يمكن اللجوء إليها وتأمين العائلات فيها , وهناك مدينة ضخمة ومخزن غذائي عملاق يمكن أن يمد سوريا بما تحتاج , فلا يكون للنظام سيطرة على موضوع الغذاء والضرورات الحياتية , ولن يضرنا هنا ضرب ريف دمشق وتطويق العاصمة , طالما ان هناك متنفسا إقتصادي وطبي وحياتي للثوار وعائلاتهم .. ألا وهي مدينة حلب.
فكما أن للنظام السوري موارد روسية وإيرانية من مقاتلين وأموال وسلاح , كانت حلب تعتبر موردا ورافدا ثمينا للثورة بكل احتياجاتها , فكان عامل الإستمرار متوفرا , وكانت الظروف تسير لصالح الثوار , حيث أنهم بدؤوا في الضرب في أكثر من مكان , وبدأت رقعة عملياتهم الأمنية والعسكرية بالإتساع , ولو قلنا للناس ان الثورة قد تستمر لخمس سنوات , فلن نجد معارضا , فهذه ظروف حياتية يمكن تقبلها والصبر عليه حتى زوال النظام.
بالمقابل , كان النظام متحرجا من إتساع رقعة الإحتجاجات , والعمليات العسكرية والأمنية ضد مقاره ومصالحه , وكان يضغط باتجاه جر الثوار إلى واقع يمكنه من خلاله فرض مايريده من حلول , لكن الأمر كان يفلت من يده كلما اقترب منه , فالناس يواصلون الإحتجاجات , وأعداد متزايدة منهم ينخرطون في العمل المسلح , ولايرون أن الأمور تسوء كثيرا من الناحية الإجتماعية والإقتصادية , بل هو وضع لابأس به ويمكن تحمله والصبر عليه لسنوات , والفضل في هذا يعود لمدينة حلب .

فكان لابد من حل!..

معركة حلب

قضينا تلك الليلة قبل منتصف رمضان تقريبا , نقنع المسلحين من مختلف الكتائب والألوية في الريف الحلبي , بتجنب دخول مدينة حلب ,وأنه قد يكون فخا , أو على الأقل مرادا للنظام يسعى إليه , فكما أوضحت في مقالتي السابقة , من أن سقوط الريف الحلبي بإيدي المعارضة شابه الكثير من الغموض والشكوك , والأمارات الميدانية التي لايقتنع بها من كان لديه أدنى علم بالأمور العسكرية , لكن ورغم كل المحاولات, كان قرار الدخول للمدينة قطعيا لاتراجع عنه ,ثم علمنا فيما بعد أن هناك أطرافا أخرى في الثورة كانت تعارض دخول مدينة حلب بهذه الطريقة لذات الأمر الذي كنا نظن.
أتخذ القرار بالدخول لمدينة حلب , وبدء معركة تحريرها.

وقبيل الدخول , توحدت جميع كتائب الريف الحلبي تقريبا تحت مسمى لواء التوحيد ,وبدأ المسلحون بدخول حلب من أكثر من جهة من الطرف الغربي والشمالي , مستغلين الثغرات الكثيرة من الناحية الأمنية في المدينة , وعدم وجود قوة عسكرية ضخمة للنظام فيها.
رغم أن الاخير , كان قد زج بقوات كبيرة في مدينة حماه , عقب المظاهرات الحاشدة التي شهدتها , فأحكم قبضته فيها , وقيد مفاصلها وحركتها , فباتت مدينة مكتومة الأنفاس , لانشاط عسكري أو أمني يذكر فيها إلا ماندر , وهو أمر عبر عن خشية النظام من تحولها لمنطقة صراع ستكون عصية عليه بلاشك.
لكنه لم يفعل ذات الأمر مع مدينة حلب , بل تركها دون قوات , إلا ماتواجد فيها بشكل طبيعي قبل الثورة
رغم أن بوادر قرب معارك تحرير الريف كان واضحة , إلا أنه توانى عن إرسال أي تعزيزات عسكرية على غرار مافعل في مدينة حماه , بل اقتصر عمله في الغالب على الشبيحة الموالين له في قلب المدينة.

وبدورنا نحن , إنطلقنا باتجاه مدينة حلب , ودخلنا من حيث دخل المسلحون من بقية الكتائب , والذين كان قد سبقنا البعض منهم بستة أيام , فكان وصولنا ليلا.
دخلنا لقلب حي صلاح الدين الكبير والمتشعب , و الذي أمتلأت شوارعه بعشرات المسلحين , وتجمعات لهم هنا وهناك من مختلف الكتائب والألوية ,ولم نكن نعلم خطتهم بالتحديد , فهل هو تحصن داخل الحي ؟ أم إنتقال لبقية الأحياء والتغلل ضمن كافة أحياء المدينة بحيث يكون حي صلاح الدين قاعدة إنطلاق لا أكثر ؟ لكن ثبت فيما بعد أن النية كانت معقودة على التحصن داخل الحي والإعلان عن السيطرة عليه كما حدث في الكثير من الأماكن!.
لكن كانت هناك مشكلة كبيرة لاحظها الكثير ممن دخل الحي , وهي أن الدفاعات كانت هشة للغاية ,حيث رأينا ذات العشوائية , والتخبط , وتجمعات للمقاتلين بين الأزقة وفي الشوارع , فظهر لنا بعد تجولنا في الحي أن التخطيط والتجهيز لايرتقي

لمستوى المواجهة , سيما وأن النظام بدأ يتغنى بما سماها " أم المعارك " مع وصول الأنباء عن ضخ قوات كبيرة لداخل المدينة من طرفه.

وأثناء تجولنا , ألتقينا بمجموعة مقاتلة تابعة لأحدى أشهر الجماعات الجهادية الضاربة , وكان باد عليهم الإنزعاج الشديد من دخول المسلحين لقلب المدينة بهذه الصورة , فعلق أحد الإخوة منهم على الأمر قائلا : كنا نحضر لعمليات أمنية كبيرة ومزلزلة داخل المدينة , لكن الظاهر أننا لم نعد قادرين على ذلك!.

وعلى بعد شارعين , كانت مجموعة أخرى لجماعة جهادية ثانية , تقف حائرة , لايدري أفرادها مايفعلون , وهم في حيرة ودهشة من تواجد المسلحين بالمئات في الشوارع , وقد بدا أنهم ينتظرون أمرا ما من قيادتهم ,فهم كما قال أميرهم : أننا لم نكن نخطط لخوض المعركة بهذه الطريقة , فلا ندري .. عسى أن يكون خيرا!..

وبعيد ساعات , أختفى عناصر الجماعات الجهادية من الحي تماما , ليظهروا بعد أيام .. كقادة للمعركة.

كان حي صلاح غارقا في الظلام , إلا من بعض المصابيح والأنوار التي تبدد تلك الظلمة , وبدأ صوت الرصاص ينطلق ويتزايد , وأصوات الطائرات المروحية تعلو ,وساد الحي الضخم توتر شديد , فقد ظهر لمقاتلي الجيش الحر فعلا , أن دخولهم كان يحتاج لتخطيط محكم , واستشارة من له دراية بهذه الأمور.

حبس الجميع أنفاسه في أول أجتماع ميداني في أحد شوارع الحي , وعلمو أنهم بحاجة وبسرعة إلى من ينجدهم ويضع لهم خطة محكمة للدفاع والمواجهة .

ولم يطل الأمر , حتى كان أميرا مجموعتبن جهاديتين تواجدتا في الحي , في مقدمة من وضع خطة لتعزيز دفاعات المسلحين ,ونشر القناصة بما يفيد في الدفاع , وتعبئة المقاتلين وتوزيعهم , ولم يمض وقت طويل , حتى تقدمت بضع دبابات من جهة حي الحمدانية , فتم صدهم ,وارتدو على أعقابهم.

فكل من كان في الحي من سكان ومقاتلين , يدين لعناصر التنظيمات الجهادية بصمودهم في وجه محاولات الإقتحام لأكثر من مرة .

في اليوم التالي , بدأ قتال عنيف , وقصف لايصدق على الحي , وبدأت معارك الكر والفر في الشوارع , حيث فوجئنا بالعدد الكبير للقناصة الذين زرعهم النظام في الأبنية والأزقة ,فما كنا نعبر شارعنا إلا ويسقط منا أحد , ولا نرتاح في مكان حتى

نسرع في تغييره بسبب القصف , ولا ندري ماحال العائلات وماتفعل , فكلٌ كان يجري ويهرب إلى أي مكان يهدأ فيه القصف , ليتركه ثانية بعد دقائق.
إتسعت رقعة الإشتباكات بسرعة لتنتقل بعد أيام إلى حي سيف الدولة المجاور , والأنصاري , ثم إلى حي الإذاعة.

وبعد إنتشار رقعة المعارك , في أحياء حلب الشرقية , والجنوبية والشمالية ,برز دور التنظيمات الجهادية , ولمع إسمها , وذهل الجميع من براعتهم في القتال , وشراستهم في المواجهة , وتنظيمهم العجيب.

حتى وأنه وعلى سبيل المثال , وعند تعسر إقتحام أو تحرير أي حاجز , يبادر المقاتلون من مختلف الكتائب بالنداء : وين شباب جبهة النصرة يجو يحلو لنا المشكلة!..

فتلك شهادة يشهد بها كل منصف:

وهي أن فشل النظام في إقتحام بعض الأحياء الحلبية , ومحاولاته لارتكاب مجازر في بعضها , وفشله كذلك في إعادة سيطرته على مدينة حلب , يعود لأبناء التنظيمات الجهادية بالدرجة الأولى , سواء التي ظهرت منها للإعلام أو التي لم تظهر.
وجدير بالذكر بأنه يقف خلف هؤلاء المقاتلين من التنظيمات الجهادية , جيش خفي من الموحدين , يدفع عنهم شبهات المرجفين , ويحمي ظهورهم دون أن يعلموا , ويتربصون بعناصر المخابرات الغربية والعربية التي ملأت مدينة حلب , يتتبعون خطاهم , ويكشفون ألاعيبهم ومكرهم , ويذيقونهم سما زعافا.

وذات مرة , وقفت مع أحد الإخوة على بعد خمس دقائق من ساحة " سعد الله الجابري , " فاستوقفنا أحد العامة ليسألنا عن أمر ما , ولم يكن قد أكمل سؤاله , حتى دوى صوت إنفجار ضخم من جهة الساحة , وعلا الدخان من طرفها , فبادرت الرجل بالسؤال : من تتوقع أنه فعلها ؟ فتبسم ولم يتردد بالجواب : أكيد جبهة النصرة مافي غيرهم!..

ذلك كلام , وثناء ساد بين سكان حلب , فهم علموا أن أبناء التنظيمات الجهادية , هم الأقدر على قصم ظهر النظام , وليس كلامي هذا استنقاصا من بقية من حمل السلاح , لا والله , بل هو وصف لحال من ألحق بجند النظام خسائر كبيرة , وأذاقهم مرارة لم يعهدوها من قبل , وهاجموهم في عقر ديارهم , وهو أمر كان بعيدا كل

البعد عن السياسة العسكرية لبقية الكتائب والألوية , وفي النهاية , إستفاد الجميع , من خبرات أبناء التنظيمات الجهادية , وأحسنوا إدارة المعركة فيما بعد منفردين , بعد أن عرفوا مفاتيح إرباك النظام , وشل حركته , فضلا عن الإحتكاك الطيب معهم , والذي سمح بنشر دعوة التوحيد , وتأليف قلوب الناس , فكانت بذار خير , أثمرت لاحقا وأرقت الإئتلاف الوطني!.

النتائج

بالفعل , فلو كان مخطط النظام هو ضرب المورد المغذي لأهل السنة , ماليا , واجتماعيا , فقد نجح ووصل إلى مايريد.
فحلب أصبحت مدينة مدمرة ,فالنظام استغل الفرصة , ودمر بعض أسواقها وحرق وسلب محال تجارية كثيرة فيها , وتسبب بتعطيل كافة أشكال الحياة فيها ,وهاجرت الالاف من العوائل من داخل حلب , وتوقف تصدير المواد الغذائية والأدوية إلى كافة المحافظات السورية , وبعيد بدء معركة حلب , أنحدر الوضع الإقتصادي بشكل مخيف في مناطق كثيرة في سوريا , نتيجة تضرر المدينة وإنعكاس ذلك على بقية المدن.

الأمر الواقع

ظهرت حلب , كقلعة لأهل السنة , وملاذا لبقية المناطق كما ذكرنا , وحاول النظام تدميرها بشكل كامل , وشل حركتها , مع أنها كانت مدينة هادئة , وليس فيها مايستدعي تدخل النظام , او نشر قوات فيها على غرار مدينة حماه , لكنه أراد أن يفعل هذا بأي طريقة وقد فعل.

وكان الجيش الحر قد وضع أهدافا طمح في الحصول عليها من دخوله لمدينة حلب :

1- حيث أن حلب تعتبر عاصمة سوريا الإقتصادية , والسيطرة عليها يعني بالضرورة سقوط النظام إقتصاديا : وهذه كانت قراءة وخطأ فادح , فالنظام لايهمه أن يجوع الناس أو يفنوا عن بكرة أبيهم , فالتمويل يصله من حلفائه , ولامشكلة عنده , فما يهمه هو تمويل حملاته العسكرية لا أكثر , وهو بالأساس يحمل الثورة مسؤولية تدهور الوضع الإقتصادي , فهو في حصانة من هذا الأمر.

2-العمل على إنهاء معركة حلب بأقصى سرعة ممكنة : وهذا أخطر مايمكن تخيله فالنظام علم أن المعركة في حلب , ستضع الجيش الحر أمام فاتورة وضغط إجتماعي كبير لن يكون قادرا على تحمله , فنحن أمام مدينة ضخمة بسكانها وإقتصادها , فإن لم يكن الحسم سريعا , فهو الإنقلاب على الثورة بلاشك , وهذا مطلب إضافي للنظام سعى إليه بعد تدميره للمدينة , فهو إلى جانب تحصنه , يتفوق في مسألة القوة النارية , والتدمير العشوائي لأي حي تنطلق منه رصاصة أو قذيفة , فيكون العبء بهذه الصورة ثقيلا على من يدخل الحي من المسلحين.

لذلك رأينا محاولات كثيرة من الجيش الحر وبيانات لطمأنة الناس تتحدث عن قرب الحسم العسكري في يومين!..

لكن الأمر لم يكن بهذه السهولة.
فهناك واقع ميداني فُرض على كلا الطرفين , وهو ثبات كل منهما في مناطق وأحياء وشوارع , وتعزيز كل منهما لدفاعاته ,ونشر قناصة بالمئات , فيكون التقدم صعبا , وتغيير مجريات المعركة أصعب , و الحرب بهذه الصورة ستكون طويلة , وكافية لقلب الناس على المسلحين الذي دخلوا مدينة حلب وفشلوا في إنهاء المعركة بسرعة كما وعدو أكثر من مرة.
ولعل حالة التململ والغضب بدأت تظهر معالمها , ومطالبات سكان بعض الأحياء بعدم دخول الجيش الحر رغم معارضتها للنظام , هو لتفادي القصف والدمار الذي سيلحق بها , مع علمها أن الأمر سيطول ولافائدة من مجازفة كهذه.

يتبع..

كتبه:

قاعدي موقوت

عقر دار المؤمنين
الشام المبارك

السبت 10محرم 1434